Journal of Faslo el-khitab مجلة فصل الخطاب
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 13 عدد رقم: 02، جوان 2024، صص: 33- 54

تاريخ الاستلام(2023/01/05)تاريخ القبول (2024/03/23)تاريخ النشر (2024/06/30)

تداولية الضّمني في الخطاب السّاخر عند ابن المقفع -مثل الحمار الذي طلب قرنين فذهبت أذناه أنموذجا-

The Implicit Pragmatics in the Satirical Discourse of Ibn al-Muqaffa:'The Donkey thatAsked for Horns and itsEars were taken away' as an Example

ذهبية حمو الحاج

جامعة مولود معمري تيزي وزو (الجزائر)، hamoulhadj_d@yahoo.fr

ملخص:

لقد سمح الجهاز المفاهيمي للتّداولية بدراسة اللّغة في أثناء استعمالها ومعاينة ذلك عند المتخاطبين بإجراءات متعدّدة كالأفعال الكلامية، والاستلزامات الحوارية، والظواهر الحجاجية... حيث تنظر إلى اللّغة باعتبارها عملية واقعة بين أطراف التّخاطب بهدف إيصال المعنى، الذي قد يكون مباشرا واضحا يدلّ عليه اللّفظ، وقد يكون ضمنيا غير مصرّح به يستدعي أدوات أخرى للوصول إليه، والخطاب السّاخر الذي التزم به ابن المقفّع مثال للممارسة النّصية التي يتقاسم معالمها كلّ من التّصريح والتّضمين، ويتّخذ بعدا مهمّا على ألسنة الحيوان نظرا لما يثيره من إضحاك، وسخرية، وتهكّم، لذلك نرى أنّها مدوّنة تتلاءم كثيرا مع الأدوات والإجراءات التّداولية باعتبار المضامين التي جاءت على لسان الحيوان بشكل سردي طريف، ويمكن معالجتها من خلال مبحث التّصريح والتّلميح، الذي يعد قاسما مشتركا بين كلّ المباحث التّداولية الأخرى.

كلمات مفتاحية:الخطاب، التّداولية، التّضمين، السّخرية، القول المضمر، الافتراضات المسبقة.

Summary:

The conceptual apparatus of pragmatics has allowed the study of language in its use and the examination of this among interlocutors through multiple procedures such as speech acts, conversational implicatures, and argumentative phenomena... where language is viewed as an actual process between interlocutors in order to convey meaning, which may be direct and clear, indicated by the expression, or implicit and unsaid, requiring other tools to reach it. The satirical discourse that Ibn al-Muqaffa' adhered to is an

المؤلف المرسل: ذهبية حمو الحاج، الإيميل:hamoulhadj_d@yahoo.fr

example of the textual practice that is shared by both explicitness and implication, and it takes an important dimension on the tongues of animals given the laughter, sarcasm, and irony it evokes. Therefore, we see that it is a corpus that is very much in line with the pragmatic tools and procedures, considering the content that came in the narrative form of animals, and it can be addressed through the topic of explicitness and allusion, which is a common denominator among all other pragmatic topics.

Keywords: Discourse, Pragmatics, Implicature, Sarcasm, Implicit Speech, Presuppositions

1. مقدمة: لقد أنعم الله خلقه البشري باللّغة، وجعلها وسيلتهم التّواصلية والتّعبيرية التي تمكّنهم من إقامة علاقات مع الآخر وضمان استمرارية الخطاب من أجل تواصل أمثل، وإن كان الأمر يدخل في عمومية المفهوم، فإنّ اللّغة هي الأصل في الإنسان سواء أفصح عنها نطقا أو بطرائق أخرى، ويبدو أيضا في هذا الأمر حديث عن انشطار التّعبير إلى صريح وضمني، وإلى حديث على لسان الإنسان وحديث على لسان الحيوان، وإلى حديث فيه حكمة وآخر يستعين باللهو والهزل لإيصال الرسالة، يقول فليب بلونشي PH.BLANCHET: "ينقسم كلّ تواصل إلى جزء صريح وجزء ضمني، تتأسّس كلّ دلالة في جزء منها على الضّمني [...] فالضّمني موجود في كلّ مكان، لأنّنا لا نقول كلّ شيء [...] ودون هذا الضّمني يصبح من المستحيل التّواصل مادام ينبغي شرح كلّ شيء في كلّ مرّة، وأقلّ رسالة يمكن أن تكون حلازونية لا نهاية لها تفصح بذاتها، كما تفصح بإفصاحها الذّاتي"[1].
إنّ العودة إلى التراث توجهنا إلى جميع هذه المعالم التي نرصدها في كتاب قيّم وثري "كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع" الذي اختلف الباحثون في أصله، نظرا لاختلاف مرجعيات ترجمته، وانتقال الكتاب من بلاد إلى أخرى.

لقد آثرنا العودة إلى هذا الكتاب لما فيه من طرائف في سرد قضايا الفرد والمجتمع والسرّ في معالجتها بحكمة، وإن توجّه المؤلّف إلى نمط متميّز من التّأليف من حيث ذكر مسألة دنيوية ما وتعضيدها بمثل من القصص على لسان الحيوان، وهو في الحقيقة بحث في النصوص المتوازية Textes paralleles التي تمنع تشتت الموضوعات وكأن في ذلك بحث عن الحجّة التبريرية الخادمة للمقدمة التي ينطلق منهاالمؤلف الذي استعان بالهزل واللّهو وسيلة لإقناع المتلقي من خلال قصص الكتاب كلّه (أربعة عشر بابا)، وجعل منها آلية من آليات التّواصل بحيث شكّلت حجّة للإقناع.

إنّ التّوجّه نحو القصص على لسان الحيوان وإضفاء الهزل على الحكايات يُدخل كليلة ودمنة ضمن المجال التّخييلي للخطاب، فهي تحتمل ميزة الصّدق والكذب، وهي في الحقيقة تضاهي تشكيلة الخطابات التّخييلية الخرافية التي يكون مستهلها عادة بجملة "كان يا مكان في قديم الزّمان" التي تُحيل إلى التّباعد الزّمني وإلى إعمال الفكر لإدراك القضايا في حلّتها التّخييلية، ومن الملاحظ أنّ قصص كليلة ودمنة لم تبتعد عن هذا النّمط، إذ تنطلق من عبارة "زعموا" وهو فعل تقريري يعود على الغائب غير المحدّد، وهي بصيغة الجمع التي تضمر قوى خفيّة متحكّمة في السّرد القصصي، والزّعم في العادة ما هو إلا بأمور غير ثابتة أو مشكوك فيها، أي المحتملة للصدق والكذب.

2. مفاهيم إجرائية نظرية:

1.2 الضّمني: يبدو أنّ المتلقي أو القارئ يتواجد دائما وهو مضطر لإتمام الرّسالة وكأنّه بإزاء نصّ حامل لثقوب، إذ ما لم يقل وما لم يُكتب قصديا من قبل المتكلّم / المخاطب ينبغي أن يُعاد إلى المتلقي/ سامع أو قارئ، فبمفهوم أوركيوني، فإنّنا تقريبا لا نتحدّث بشكل مباشر، تقول جونفياف زاراتي G.Zaraté أنّ خلف تفاهة اليومي، ينتشر الضّمني، فهو موجود وراء التّفاعلات الاجتماعية التي لا معنى لها[2].في الحقيقة، لا توجد صيغة عجيبة للكشف عن الضّمني في النصّ، فالخلفية الثّقافية وكفاءة المتلقي الموسوعية، إضافة إلى معرفته باللّغة (الكفاءة اللّسانية والخطابية) ضرورية للقيام بالعمل التّأويلي، فبغرض الممارسة التّأويلية التي تكشف عن الضّمني في الخطاب، يمكن الاستعانة بالتّداولية واللّسانيات الاجتماعية.

التّعريف الأكثر بساطة للضّمني قدّمه جون بول جرايسJ.P.Grice بتفرقته بين الصّريح والضّمني من القول، بالإشارة إلى أنّ التّصريح هو أن نقول شيئا، بينما يكون الضّمني هو حثّ شخص ما على التّفكير في شيء ما، وهنا ينبغي التّذكير بالعلاقة الكائنة بين هذا التّعريف والفعل التّأثيري للفعل الكلامي عند أوستين وفي اللّسانيات التّداولية بشكل عام.النّسبة لأوركيوني، فإنّ المحتويات الضّمنية (الأقوال المضمرة والافتراضات المسبقة) تشكّل من المفترض الموضوع الحقيقي للقول، بينما تتطابق المحتويات الصّريحة دائما مع الموضوع الأساسي للرسالة المراد إبلاغها. سيكون التّضمين إذن تلميحا ينبغي فكّ شفراته، ويعد في الآن ذاته تكييفا بالنسبة للمتلقّظ، يمثّل الضّمني إذن استمرارا أو امتدادا لما أُنجز

وما قيل من قبل، ويفرض على المتلقي وضع الفرضيات، مثلما عليه التّكيّف مع الوضعيات المختلفة، وإلا كيف يمكن استخلاص ما يدخل في الصّمت، وفي نصف الكلام، وفي التّلميح، ومن القول المضمر، وما هو لعب بالكلمات؟فقد صدقت أوركيوني في قولها :"إنّ الأقوال المضمرة هي كلّ المعطيات التي يمكن لملفوظ معيّن نقلها ...."[3].

من الواضح أنّ الضمني مرتبط بعقد، مثلما تؤكّد على هذه الفكرة جونفياف زاراتي، فإنّ "الضّمني ينظّم اليومي بفرض رؤية عن العالم بطريقة غير شرعية"[4]، ويمكن الاستعانة في تحديد الضّمني بمقولة سورل في مقال له حول الأفعال الكلامية غير المباشرة (1982)، ويقول فيها:" (...) يمكن للمتكلّم بتلفّظه لجملة ما أن يقصد شيئا آخر مقارنة بما تدل عليه الجملة مثل حال التّعبير المجازي، أو يمكنه أن يقصد عكس ما تدل عليه الجملة مثل حال السّخرية، أو أيضا أن يقصد ما تدل عليه الجملة أو أكثر". فالمتكلّم الذي يتحدّث عنه سورل ينبغي أن يستنجد بالوسائل اللّسانية للتّعبير عن هذا "الشيء الآخر" أو هذا "العكس" أو هذه "المعلومات الإضافية"، وإن كان من الواضح أن يقتضي الضّمني عند المتلقي إحصاء بالتوقّع (الاستنتاج، الافتراض المسبق، القول المضمر ...) مثلما يبدو أنّ الضّمني مرتبط بالحيلة أو الخداع، ولهذا نجد جونفييف زاراتي تقول :"إنّ الضّمني يبني وجوده على النفاق"، فزاراتي تلحّ على أن يتضمّن اشتغال الضّمني تنظيم الحقيقة أو الواقع، وهو يفترض مجموعة الآراء والاعتقادات القابلة للمناقشة. فالضّمني يقتضي اندماجا مباشرا لرؤية العالم.

وبعد تحديد الضّمني، علينا الكشف عن الاستراتيجيات التي يطوّرها المتلقي لفكّ رموز الرّسالة في كلّ أبعادها والمعبّر عنها بشكل ضمني، فالمعرفة المشتركة التي تتحدّث عنها زاراتي ليست مشتركة دائما مثلما يتصوّر ذلك المتكلّم، الأمر الذي حدث مع الحمار عندما حاول أن يخاطب الأيل ولم يتمكّن هذا الأخير من فهمه، لأنّ معرفتهما بالعالم مختلفة، فإذا كان الحمار يتودّد من أجل الحصول على قرون، فإنّ الأيل غائب عن هذا المسعى.تعتبر أوركيوني أنّ المحتويات الضّمنية متواجدة في المحتويات الصّريحة، وإذا انطلقنا من هذه البديهية، يبدو أنّ الوصول للمحتويات الضّمنية يبدأ من التّعرّف على المحتويات الصّريحة، والكفاءة اللّسانية ستسمح أولا باستخراج المحتويات الواردة في السياق اللّغوي وفي النصّ.

وللوصول إلى المحتويات الضّمنية، ينبغي كخطوة أولى فكّ شفرات المحتويات الصّريحة، والتي تمر عبر كلّ المستويات: المعجمية، والتّركيبية، والدّلالية، والأسلوبية

(التّنظيم البلاغي، ومستويات اللّغة)، والتّصنيفية (الخاصّة بهذا الخطاب أو ذاك)، ومعرفة أنواع الكتابة والأبعاد التّداولية والتلفّظية، يقول عبد الهادي بن ظافر الشّهري: "تتألّف القدرة التّواصلية لدى مستعمل اللّغة الطّبيعية من خمس ملكات على الأقلّ، وهي الملكة اللّسانية، والملكة المنطقية، والملكة المعرفية، والملكة الاجتماعية"[5]، فالكفاءة اللّسانية غير كافية لتحليل النصّ والكشف عن مضمراته، وإن تعذّر الفهم من خلال المعطيات اللّسانية، فإنّ المتلقي سيلجأ إلى الكفاءة الموسوعية، أو ما يدعى بالكفاءة الثّقافية المرتبطة بخزّان من المعطيات خارج لسانية، وهي كفاءة تعرّج على جميع المجالات، مثلما يمكن الاستعانة في بعض الأحيان بالكفاءة البلاغية وهي مجموعة من المعارف التي تملكها الذّات المتحدّثة عن اشتغال المبادئ التّخاطبية، وينبغي الإشارة إلى أنّ الخطابات المنطوقة أكثر ثراء من حيث الضّمني مقارنة بالخطابات المكتوبة.

كما تساعدنا الكفاءة اللّسانية على تحديد مؤشرات التّأويل اللّسانية، فكذلك نحتاج إلى كفاءة سياقية لاكتشاف مؤشّرات أخرى تتعلّق بالأنا والأنت وهيئات الحضور في الزّمن والمكان، وهي مؤشّرات تدعو إلى التّأويل كما بعثت على إلحاق متغيّرات قصدية"[6]، إنّ البحث عن المعنى الحقيقي والمستهدف من قبل المخاطب في ملفوظ ما يستلزم البحث عن القصد من وراء التّلفّظ به، وإن كان المعنى خاضعا لعدّة مؤشّرات، فإنّ ذلك سيحيلنا إلى عدّة تساؤلات حول قصدية إنتاجه، والتي ستتفرّع إلى عدّة عوامل مثل السّياق ومدى مصداقية قائله، ومناسبة التّلفّظ به، فنكون بإزاء معنى خاص بالمنطوق من القول، ومعنى خاص بالمخاطب، وإن عدنا إلى مدونتنا، فالحمار عندما قال :"أظنّ أنّي أعجبته لما رأى من شهامتي وحسني وقد اشتغل قلبه بي"[7] فلابد أن يكون لهذا الملفوظ معنى للمنطوق، ويحيل إلى اعتقاد الحمار في إعجاب الأيل به وحبّه له، والمعنى الخاص بالحمار باعتباره متكلّما، فإنّه سيحيل إلى عدم وجود ما يشير إلى ذلك الإعجاب والحب، لأنّ الأيل لم يوله أي اهتمام، وإنّما كان منزعجا منه، فالسياق أبرز عدم مصداقية الحمار فيما يذهب إليه.

2.2 السّخرية: يحيل مفهوم السّخرية في التّراث العربي إلى معنى التّهكّم والاستهزاء، وإن كانت السّخرية طريقة يتمّ فيها قلب المعاني لتكون عكس مقاصد الكلام، فقد ارتبطت بالأدب العربي قديما أيّما ارتباط، إذ نشهد لقصص كليلة ودمنة على لسان الحيوان، والتي أطّرتها السّخرية في بنائها العام وسمحت بجريان الأحداث وفقا لمقاصد مستقصدة مفعمة

بالسّخرية، ممّا يقوم به الحمار من تصرّفات أو ما كان يضمره وما كان سينفذه بعد حين، فيمكن القول إنّ السّخرية شكّلت سلطة مركزية سيّرت قصّة "الحمار الذي التمس قرنين فذهبت أذناه"، وإن لم تكن هذه السّخرية في مجال المحظورات، إذ المعروف عن الحمار أنّ كلّ الأمثال تُضرب في كيفية تفكيره وتصرّفاته، ولكن تبقى السّخرية قائمة في كلّ القصّة بحيث ساهمت في بنائها، والغرض المضمر كامن في تمرير النقد الموجّه إلى أمثال البشر الذين قد يطالبون بما لا يتناسب معهم، والأخطر من ذلك أنّ نتيجة عدم التّخطيط والتّهوّر في التّصرّف يؤدّي إلى هلاكهم وهلاك الآخرين، وهو المغزى الذي حملته السّخرية، فتميّز الحمار باللاعقلانية في التّفكير أدىّ إلى تضييعه ما كان لديه بدل اكتساب ما كان يراه مناسبا له، والحكمة واضحة قامت السّخرية باحتوائها بشكل جيّد وجميل في حبكة من التناسق بين الأحداث والانسجام في المضامين الصّريحة والضّمنية.

ومن خلال العودة إلى الكتاب وقراءة القصص، تبيّن لنا أهميّة الجانب المضمر أو الضّمني في نسج شبكة العلاقات في النصوص، فالمعنى المراد لا يمكن الوصول إليه بالاكتفاء بالجانب اللّغوي البنيوي المحض، الرّافض للسّياق والمرجع، وإنّما تجاوزه والدّخول في فضاء يلمّ بالعلامات في علاقاتها المختلفة، سواء مع بعضها البعض أو مع الموضوعات الخارجية، أو مع الذّوات، وهي الأبعاد السميائية التي تحدّث عنها شارل موريس عندما أشار إلى البعد التّركيبي، والبعد الدّلالي، والبعد التّداولي، يقول إمبرتو إيكو E. ECO : "إنّ السمياء تدرس البنية المجرّدة لأنظمة الدّلالة (مثل اللغة المنطوقة، وإشارات المرور، ولعبة البطاقات ...) أو تدرس العمليّة التي يقوم المتخاطبون أثنائها بتطبيق قواعد هذه الأنظمة بهدف إيصالها [...] ويمكننا القول إنّ علم الدّلالة يتعلّق أساسا بأنظمة الدّلالة، بينما تعالج التّداولية عمليات التّواصل"[8]. وإن كنّا نبحث في حدود المعنى من خلال قراءة المضمر والبعد التأويلي للعلامات، فإنّنا سنكون في المجال التّداولي الذي سيحيلنا إلى الإمعان في مقولة "علاقة العلامات بمؤوليها" بمفهوم بورس.

سنتوجّه في هذا البحث إلى الاشتغال بمصطلح هابرماس "التّداولية الكليّة"[9] التي ستوقفنا عند حدود موضوع الخطاب أو النصّ ذاته والفعل التّواصلي l'acte de communication الذي سيحيل أيضا إلى عناصر متشابكة تجمع بين ما هو مصرّح به وما هو ضمني أو مضمر.

ينصرف التّيار التّداولي إلى معالجة اللّغة في بعدها التّواصلي والإنجازي ويمكن العمل بالبعد التّفاعلي، وإن انطلق هذا التّيار من اللّغة العادية، أو تلك التي يتحدّثها الرّجل العادي بكلّ مقوماتها، فإنّ الاقتراب من اللّغة الأدبية الرّاقية يعني تغيير النّظرة القائلة بعدم ارتباطه بالمجتمع أو السياق الخارجي، ووضع المقاربات الأخرى كالبنيوية، والأسلوبية الإنشائية في كفّة النّقد وجعلها تحتمل مدلولات ومفاهيم جديدة كالاقتضاء، والحجاج، والفعل، تساعد على فهم الخطابات الأدبية وتأويلها، بما لها من علاقة بعناصر أخرى مهمّة في التّحليل وهي المخاطب (المؤلّف)، والمخاطب (المتلقي)، والسياق والمراجع بطبيعتها المختلفة، والذّاتية والمقاصد على نحو يجعل تداولية الأدب ممكنة، بل ضرورية لقراءة النّصوص وتفسيرها وإعطائها ما تستحقه من بعد تأويلي يقتحم عالم الخرافة والخيال.

ومن هذا المنطلق يمكن القول إنّ التّداولية باعتبارها تيارا جديدا أعطت للخطاب الأدبي أسسا جديدة يواكب بها مستجدات التّحليل النّقدي، ومن هذه الأسس ممّا يذكره مسعود صحراوي في كتابه "التّداولية عند العلماء العرب"[10] ما يلي:

1. الخطاب الأدبي خطاب في سياق انطلاقا من مقولة "لا نصّ دون سياق".
2. الخطاب الأدبي خطاب ذو مقاصد انطلاقا من مقولة "لا نصّ من دون مقصد".

وتجدر الإشارة إلى وجود عدّة مقاصد (لسانية، تواصلية، وتداولية)، والمقاصد التّداولية هي التي نبحث فيها عن دلالة النصّ لأجل تأويله تأويلا يتناسب مع السّياق الذي ورد فيه ومن أجله.

3. الاستعانة بمبدأ التّعاون لجرايس، أي التّعاون بين الكاتب/المؤلّف والقارئ بهدف انسجام الخطاب، بحيث يكون تفكيك النصّ نشاطا تعاونيا، وعملا مشتركا لا يتوقّف عند مقاصد المؤلّف، بل على القرائن التي يوفّرها النصّ ممّا يساعد القارئ على فهمه وتأويله تأويلا صحيحا.

4. الخطاب الأدبي عمل لغوي مخصّص.

ومن خلال هذه الأسس الهامّة التي تجمع بين أهميّة السياق والقصد والفعل التّواصلي في تحديد المعنى في الخطاب الأدبي، وبالأحرى الوصول إلى التأويل المناسب بالنّظر إلى ما يتقاسمه الجانب الصّريح والضّمني من حدود وما يسهم في تماسك النصّ وانسجامه، والاحتكام إلى الأدوات المنهجية الملائمة، نشهد في مسيرة التّداولية في مجال البحث العلمي

لظاهرتين بارزتين: إذ لا يمكن للملفوظ أن يؤوّل إلا في سياق محدّد، السياق الذي ينبغي على الوصف التّداولي التّصريح به وتفسيره، إضافة إلى توحيد التّأويل التّداولي الذي يكون بوساطة العلامات اللّسانية بحيث لا تتحقّق قدرتها الدّلالية إلا على المستوى التّداولي، ورغم أهميّة البديهيتين لم يعترف الباحثون بهما في الآن ذاته، وانجرّ عن ذلك تطوّر المقاربات السّياقية والمقاربات اللّسانية للنّظريات التّداولية بشكل مختلف.

في حالة المقاربات السّياقية، تشكّل التّداولية (حسب فان ديك، 1977) المكوّن الأساس للنّظرية اللّسانية، والتي تستلزم أن يتم تحليل المكوّن التّداولي للملفوظ بعد تحليله التّركيبي وتحليله الدّلالي. أمّا في حالة المقاربات اللّسانية (حسب أنسكومبر وديكرو، 1983) فيحدث العكس، إذ تُدمج التّداولية في الوصف اللّساني، ولا يتدخّل السياق إلا لتقديم القيم للمتغيرات النّاتجة عن الوصف الدّلالي أو لإثارة تطبيق قوانين الخطاب.

وانطلاقا ممّا ذُكر، يبدو أنّ دور التّداولية قد غير الاتّجاه منذ أن صدر لجرايس J.P. GRICEمقاله في 1979، والذي أثار فيه إشكالية طبيعة المبادئ المسيّرة للتّبادل الكلامي والقواعد المستعملة من قبل المتلقي لتأويل الملفوظات، فقد اختلفت مقاربته مقارنة بالمقاربات السّابقة كون السياق لم يعد العامل الوحيد لتحديد التأويل، وفرضيته تنطلق من فكرة أن يتحدّد تأويل التّداولية المنجزة من قبل المتخاطبين (على صيغة الاستلزامات) بوساطة مبدأ التّعاون وبديهيات المحادثة، فلم تعد مقاربته مقاربة سياقية محضة، وليست كذلك مقاربة لسانية، وإنّما مقاربة استدلالية، فالتّأويل التّداولي ناتج عن طريق مسار استدلالي وبمبادئ إحصائية انطلاقا من القواعد التّحادثية.

ورغم ما حملته المقاربة الجرايسة من جديد فيما يتعلّق بتسيير العملية التّحادثية وضبط قوانينها وأحكامها إلا أنّها لم ترق لأن تتربّع على أرض البحث التّداولي كثيرا، نظرا لما وجّهه سبربر وولسن من نقد لاذع خصوصا ما يتعلّق بقاعدة المناسبة أو الملاءمة، التي ستكون بابا على نظرية معرفية مؤسسة على كونها:

-استنتاجية: التّأويل التّداولي للملفوظ هو نتيجة مسار استنتاجي ومن طبيعة استنتاجية يتدخّل على المستوى التّداولي وليس على المستوى الدّلالي.

-سياقية: التّأويل التّداولي للملفوظ هو نتيجة للمعطيات المحتواة في الملفوظ وسياقه.

-معرفية: التّأويل التّداولي لملفوظ ما هو نتيجة مسار معرفي أو ذهني متدخّل على المستوى المركزي للذّهن المؤسّس على تكوين الفرضيات وتثبيتها بمفهوم جيري فودور J.Fodor (1986).

3. استراتيجية التّضمين وأبعادها التّداولية في قصّة الحمار:

يعدّ التّضمين إجراءً ضروريا وحتميا في اللّغة الأدبية، إذ كثيرا ما تحدّث الباحثون عن المجاز، وهو في الحقيقة ليس إلا بحث في البعد التّخييلي للخطاب، بحث في تجاوز المعنى لما يربطه باللّفظ لغويا، إذ يسبح في فضاءات تجعل الذّهن يبحث في علائقه مع عوالم مختلفة. اقد اقترن التّضمين بالإضمار، والاخفاء، الأمر الذي يحفّز على التّأويل والتّأمل في القضايا المختلفة بهدف الوصول إلى المقاصد المستقصدة، وإن توجّه ابن المقفّع إلى توظيف المثل، فذلك من أجل دعم الفكرة وتصديق ما تحمله من محتوى، نظرا لما يحمله المثل من سلطة لفظية ومعنوية من الصّعب دحضها لما يربطها بالواقع والمنطق، ويكتسب هذا الموقع نظرا للتّضمين الذي يعطيه بعدا تداوليا يفرض عدّة ملكات وكفاءات للولوج إليه، وبذلك يعدّ المثل آلية تضمينية يوظفها المخاطب مراعاة للسّياق المقامي الذي صيغت فيه، علما أنّ المتكلّم في القول التّخييلي قد يدّعي الإخبار، وهو يقصد ادّعاء القيام بإخبار، ولكنّه لا يقصد مغالطة مخاطَبه"[11]، لأنّ المغالطة قائمة على باطل وتستوجب الكذب، والذي يكذب أو ينتج نصّا تخييليا لا يعتقد في صدق ما يثبته بمفهوم آن ربول وموشلر[12] A.Reboul, J.Moechler.

والمثل الذي أخذناه "مثل الحمار الذي التمس قرنين فذهبت أذناه" ضرب من الأمثال التي بُنيت عليه حكايات كليلة ودمنة، ويمكن اعتبارها عتبة نصيّة لابد منها للولوج إلى الموضوع المسرود قصد استنباط الحكم وما يعبّر عنها من تعليمات، فنكون بإزاء الحمار الذي لم يرض بما قدّمه الله له من نعمة جسدية، مثلما أصبح هذا الحمار يطالب على طريقة الشّغب والهيجان بمطالب تقّربه من بني جنسه، نظرا لما كان يلقاه من إحسان صاحبه له (كثرة العلف والاهتمام)، إلا أنّ غباءه قد أدركه عندما اعتقد أنّ القرون التي يحملها الأيّل إشارة إلى امتلاكه للسلاح والتّمكن من الفروسية، وترتفع درجة الغباء إلى درجة التّفكير في خدمة الأيّل في مقابل الحصول على قليل من الأسلحة، والاعتقاد أنّ الحكمة الالاهية هي التي ساقت الأيّل إليه، إلاّ أنّ هذا الأخير أصابته الدّهشة عندما شاهد الحمار في هيئته المتميّزة والمؤسّسة على الغرور، ولم يأخذ نصيبه من الماء ما دعا صاحبه إلى إرجاعه إلى البيت.

لقد كان الحمار سعيدا جدا بهذا اللّقاء أو الصّدفة التي جمعته بالأيّل،وتتضمّن رغبة باطنية لله عزّ وجلّ في إسعاد الحمار، واعتقاد ضمني أنّ الأيّل معجب به، لذلك كان يتوجّه بالنّظر إليه، وأنّه أصبح يفكّر فيه منشغل البال به، فمثل هذا الحيوان تحدّدت في منظوره المعرفي عدّة معالم مصمّما بالأخذ والاعتقاد بها دون أن يبذل مجهودا في رصد الملامح الصّريحة، والنّظر في العالم المحيط به في حقيقته مهما كانت، ما أدّى بالحمار إلى ترصّد بيت صاحب الأيّل والوقوف عند الموضع الذي سيقوده إليه في يوم معلوم.إن تصارع الجانب الصريح والضّمني للعلامات الموظّفة في هذا المثل جعلت كفّة الميزان تميل إلى الضّمني، نظرا لبلاهة الحمار وتفكيره فيما هو بعيد المنال، فهو تشبيه بالمستحيل وبعالم افتراضي جعل القصّة تنسج على أساسه، ويظهر ذلك في عدم توجّه الحيوان إلى الأكل والشّرب، وانشغال باله بالأيّل إلى حدّ كبير.

مثلما تجسّد الجانب الضّمني في اختيار اللّيل للوصول إلى الأيّل، واللّيل باعتباره علامة سميائية تحمل أبعادا ضمنية لما ينجز فيه من أفعال لا يمكن إنجازها في النّهار، مثل الهروب الذي تجرّأ عليه الحمار رغبة في الوصول إلى الأيّل متحدّيا كلّ المخاطر، والأمر المدهش أيضا عدم تمكّن الحمار من مواجهة الأيّل نظرا للباب الذي كان مغلقا عليه، والانتظار الطوّيل علامة على الإصرار وعدم التّمكّن من اقتحام موضع الأيّل الذي صدّت عليه الأبواب، وإن كان هذا الأمر مرتبطا بالجانب السيميائي، فمن الجانب التّداولي نجد أن الحمار في قوله :"يجب أن أجعل هربي إليه في اللّيل"[13] يجعل الملفوظ مرتبطا بالسياق الذي قيل فيه، إذ يجيب عن أسئلة من قبيل: لماذا الهرب ليلا، ولماذا الهرب وليس الذّهاب...فالمضامين ستكون متعدّدة بتعدّد السياق الذي تفرضه، ويكون مثل ديكرو O.Ducrot الذي يجعل في الأقوال المضمرة خاصية التّبعية للسياق وعدم ثباته، فيوجد دائما ولكلّ ملفوظ "معنى حرفي" بحيث تعزل كلّ الأقوال المضمرة الممكنة، قال الحمار :"ما حمل الأيل هذه القرون إلا وعنده رماح وقسيّ..."[14]، فيمكن أن يفهم من القول إنّ الحمار يرغب في الحصول على قرون تضاهي قرون الأيل، رغم أنّه يمكن أن يتوجّه الذّهن في وضعية سياقية معيّنة إلى المعنى الحرفي والتّخفي وراء ذلك والقول :"أنا لا أرغب في قرون، وإنّما يعجبني وجودها عند الأيل، فهو أنيق بها"، وهو في ذلك يزعم تقويله أكثر ممّا قاله، فما على السّامع إلا تحمّل مسؤولية تأويله، ومن خلال المثال الحامل للقول المضمر، أنّ هناك خاصية إمكانية إنكاره دائما[15].

ويتواصل الخطاب الضّمني في الاشتغال، ويبرز ذلك في حديث الحمار مع الأيّل ومخاطبته له والتي باءت بالفشل، نظرا لعدم انتقال الرسالة منه إلى الأيّل لأنّهما لا يقاسمان الوضع التّواصلي نفسه، ما تسبّب في غضب الأيل الذي انطلق في مقاتلة الحمار، وزادت الطين بلّة عندما أخذ صاحب الأيّل العصا وضرب الحمار وفي هذه الأثناء، يمارس الحمار مرّة أخرى الفهم الخاطئ للوضع المحيط به، إذ يعتقد أنّ صاحب الأيّل هو السبب في مأساته، ما تسبّب في أضرار أكبر، حيث يقفز على الرّجل ويقوم بعضّه من الظهر عضّة قويّة مؤلمة، ونتيجة لهذا الفعل سيعاقب عقابا أشدّ وأمرّ، إذ قرّر الرّجل قطع أذني الحمار بسكينه حتّى يترك فيه علامة تسمح بالتّعرّف عليه عند المطالبة بالثأر منه.

إنّ تقنية التّضمين التي تبنّاها ابن المقفّع لم تكن من باب الصّدفة، وإنّما ليعبّر عن فكر أكثر شمولية، إذ يظهر التّضمين من بداية المثل إلى نهايته، وهو تضمين مرتبط بالموضوع وبالدّرس أو العبرة التي أراد إيصالها، فلا توجد معان صريحة لأنّها مشدودة إلى أسلوب متميّز موجّه إلى إعمال الفكر للوصول إلى المضمر منه بحثا عن المقاصد الخفيّة، إذ القصة كانت على لسان الحيوانات ولأنّها تفتح أبوابا للتأويل والنّظر في الإنسان ذاته ووجوده ومجتمعه.

1.4 التّلفّظ بين التّصريح والتّضمين:

يرتبط التّلفّظ أكثر الارتباط بالفعل المنجز بواسطة الكلام، فإذا انطلقنا من عبارة أوستين الشّهيرة "القول هو الفعل"[16] فذلك سيحيل إلى ارتباط المتلفّظ بما يقوله وبما ينتظره من تأدية وإنجاز فعلي، لأنّ الكلام وُجد للإخبار عن شيء ما، أو التّصريح بشيء ما، أو الأمر بفعل ما....ما يجعل اللّغة تحتمل صفة الخطاب، ويجعل المتكلّم في موقع المخاطبة من خلال التّعبير عن أفعال حقيقية بإمكانها أن تتجسّد أثناء عملية التّواصل وبعدها، إذ يرتبط القول بالإنجاز مثلما يرتبط هذا الأخير بالتأثير في الآخر، فأغلب الأفعال تتعلّق بالإنجاز، ولهذا دعا فلاسفة اللّغة العبارات اللّفظية بأفعال الكلام، والتي قام أوستين بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام (فعل قولي، وفعل إنجازي، وفعل تأثيري):

- يظهر الفعل القولي في الجمل التي نطق بها الحمار والرّجل، من قبيل ما قاله الحمار:" أظنّ أنّي أعجبته لما رأى من شهامتي وحسني وقد اشتغل قلبه بي"[17]، فمثل هذه الجملة تعتبر فعلا لغويا، باعتبار إنتاج الدّلالة التي تنضوي تحتها، بالإضافة إلى جمل أخرى

من قبيل: "ما يمنعني من كلام هذا الأيّل واللّطف به وكشف ما عندي إلا هذا الرّجل الذي يقوده" وكذلك قوله: "لقد كان أبائي أقدر منّي على هذا، لكن خافوا من سوء عاقبته فامتنعوا منه"، ولذا لم تحتمل علامات الجمل الانجازية، إلا أنّها كذلك بفعل التّخلي عن التفرقة بين التقريرية والإنجازية.

تتضمّن الجمل التي تلفّظ بها الحمار فعلا لغويا غير مباشر، إذ تفتقد هذه الصّيغ إلى ما يجعل منها أفعالا لغوية صريحة مباشرة، فالحمار في الجملة الأولى يعتقد أنّ الأيّل ينظر إليه إعجابا به، وأنّه بدأ يفكّر فيه. ينبثق من التّأمل العميق في القول إنّه حامل لمقصديتين:

1. تظهر المقصدية الأولى في الدّلالة اللّسانية الصّرفة التي تحملها الجملة، وتكتفي بالمعنى الحرفي والمباشر وتتلخّص في سمة الاعتقاد والظّن التي التزم بها الحمار فيما يتعلّق بإعجاب الأيّل وانشغال فكره به.

2. تظهر المقصدية الثّانية من خلال الإجابة عن بعض الأسئلة

- ما الذي جعل الحمار يعتقد في شهامته؟
- لماذا فكّر الحمار في الحصول على قرنين؟
- لماذا توجّه الحمار إلى طريقة الهيجان أمام الأيّل؟

مثل هذه المقصدية نتوصّل إليها عن طريق مجموعة من الاستدلالات الخاضعة للأسئلة المطروحة سلفا، إذ عن طريق التّأويل نتوصّل إلى أنّ الحمار يتميّز بعقدة النّقص وبعدم الجرأة على مواجهة المواقف، ويظهر ذلك في السّلوكات التي صدرت منه، وتفضيله الهروب ليلا للالتحاق بالأيّل، وعدم استخدام الذّكاء للوصول إلى ما يريد، فعضّه لصاحب الأيّل زاد من خطورة الوضع الذي عرّض له نفسه، ومثل هذه التّآويل مصدرها الفعل "أظنّ" الذي يحيل إلى الشّك القريب من الصّواب.

وتتجسّد هذه التّأويلات في الجملة الأخيرة من القصّة، والتي تلفّظ بها الحمار إذ يقول:" لقد كان أبائي أقدر منّي على هذا، لكن خافوا من سوء عاقبته فامتنعوا منه"، فالنّظرة التّفاعلية التي تميّز بها هذا النّمط الخطابي تجعل النّهاية مرتبطة بالبداية، فمسألة الاعتقاد ستنسف بما تعرّض له الحمار وتتجسّد في قوله الذي كان أكثر قربا من الحكمة، والفعل المتضمّن في القول وكان غير مباشر تمثّل في عدم مواجهة ما هو أكبر لأنّ الغلبة ستكون له. أمّا الجملة التي تلفّظ بها الرّجل "إن أنا واخذته لم آمن من بليّة يلقها بي، ولكنّي أودّ أن أعلّم فيه علامة حتّى إذا رأيته طالبت صاحبه بثأري"[18] عبارة تتضمّن فعلا لغويا غير

مباشر، لأنّه غير موجه إلى المتلقي (الحمار) مباشرة، ونظرا لعدم توفّر الشّروط التي تسمح بالحديث عن الفعل الكلامي بمفهوم أوستين، فإنّه أقرب إلى الجملة التّقريرية من الجملة الإنجازية، ذلك أنّ الرّسالة لم تصل إلى صاحبها ولا ينتظر منه إنجاز أيّ فعل رغم ما تتضمّن من أبعاد تداولية مضمرة، إذ أنّ التّصريح بالبليّة التي يمكن أن يبادر إليها الحمار يعدّ في الآن ذاته إضمارا للأثر التي يتركه عتاب الرّجل فيه، وبالتّالي فالجملة تعدّ إنجازا لفعل ما وتبقى مضمرة في ذهن الرّجل الذي اختار طريقة أخرى للّوم والمعاتبة وهي طريقة قطع أذني الحمار ليجعل لذلك علامة التّعرّف عليه وأخذ الثّأر من صاحبه.

كانت العلامة باهضة الثّمن، فلم تظهر إنجازية الفعل الصّريحة نظرا لغياب عناصرها، إلا أنّها كانت مضمرة وظاهرة في الفعل الذي أقدم عليه الرّجل، فنحن أمام افتراض مسبق معروف يتقاسمه الرّجل والحمار معا، ولم يكن صريحا في عبارات الرّجل خصوصا، إذ يكون هذا الافتراض خلفية مضمنة في القول ذاته، وبذلك يتشكّل ما يدعى بالفعل الكلامي الافتراضي، وهو في نفس درجة الأمر والاستفهام، فلو قلنا" اغلق فمّك؟" فلابد أن يكون لديه تأثير في المستمع وله القدرة على تأويل القول بمعنى غلق الفمّ الذي هو مفتوح مسبقا، ولا تستند وظيفة الآمر إلا لمن وُجد في وضع يسمح له بإصدار الأوامر[19].

يضمن الافتراض المسبق التّماسك العضوي للخطاب، لأنّ صاحب الأيّل يعلم جيّدا ما يمكن أن يفعله الحمار بعد أن أقدم على عضّه عضّة شديدة من الظّهر، والحمار أيضا قد أخذ درسا في الضرب بالعصا، ثم بقطع الأذنين، وبذلك يكون الافتراض المسبق قد ضمن تماسك الخطاب، وهو ما يسمح في حقيقة الأمر بوصول الرّجل إلى الثّأر من الحمار باختياره علامة قطع الأذنين، ويمكن تطبيق الأمر نفسه على باقي القصّة، فهي مؤسّسة من الافتراضات المسبقة، التي تعتمد في فهمها وتأويلها على البعد اللّساني الذي قيلت به الجمل والعبارات، فإذا كانت اللّغة هي وسيلة التّواصل مثلما هي الفكرة متداولة على ألسنة الباحثين وغير الباحثين اللّغويين، فإنّ دومنيك مانقونو D. Mainguenau يستغرب العودة المستمرة للجانب الضّمني، فهو يقول :"يبدو أنّ وجود المفترض المسبق مرتبط بمبادئ الاقتصاد، فالتّواصل يصبح مستحيلا إذا لم نفترض مسبقا اكتساب عدد معتبر من المعلومات التي انطلاقا منها يمكن إدخال معلومات أخرى"[20]، فالافتراض المسبق يعدّ جسرا يسمح بالانتقال من معلومة إلى أخرى باتّخاذ المنحى الضّمني وسيلة لذلك، تقول

أوركيوني C.K Orecchioni :"الافتراض المسبق هي تلك المعطيات التي لم يُصرّح بها، فهي منقولة بشكل آلي عن طريق صياغة الملفوظ التي تتواجد مسجّلة فيه مهما كانت خصوصية الإطار التّلفّظي"[21]، وتقول أيضا في السياق نفسه:" تدخل الافتراضات المسبقة في إطار اللّغة، ولا يتدخّل السياق إلا لرفع تعدد المعاني... وعلى عكس ذلك تنتج الأقوال المضمرة من ارتباط العوامل الدّاخلية والخارجية، والسياق في هذه الحالة يؤدي دورا إيجابيا في عملية تكوين المعنى الضّمني"[22]، يقول صاحب النصّ: " وإنّ الأيل لمّا رأى هيجان الحمار بقي متعجبا لا يشرب. فقال الحمار: أظنّ أنّي أعجبته لما رأى من شهامتي وحسني وقد اشتغل قلبه بي"[23]، فلا يمكن معرفة سبب تعجّب الأيل من الحمار إلا بمعرفة السياق الذي حدث فيه التواصل بينهما، إذ التّعجب قد لا يعني الاعجاب مثلما يعتقد الحمار، وإنّما قد يكون استخفافا، أو احتقارا، أو استهزاء بما تبادر من الحمار، والسياق الذي سيفرضه الحمار بعد هذا الحدث ومحاولة تقرّبه من الأيل سيثبت ذلك وتتأكّد الفرضيات، تقول أنّا جوبير A. Jaubert :"يخفي المحتوى إشارات من طبيعة مختلفة اثناء القراءة، إشارات أقل ما يقال عنها واضحة وأكثر تقييدا في مرحلة التّلقي، ما يؤسّس للتّصنيف، مع التّمييز في المنطلق بين الافتراض المسبق والقول المضمر، وممّا لا شكّ فيه أنّه يؤثّر على القوّة الإنشائية للتلفّظات المشابهة"[24]. بالنسبة لأنّا جوبير فإنّ المفترض المسبق محتوى ضمني موسوم لسانيا، يدخل في إطار تركيب أو مفردات الملفوظ ذاته، فهي تؤكّد فكرة ديكرو وأوركيوني، حيث تقول:"إنّ تدخل الافتراضات المسبقة في إطار الملفوظ، وتتحقّق بشكل آلي دون النّظر إلى ظروف تلفّظية معيّنة، وظهور الأقوال المضمرة ناتج عن تركيب المعلومات الدّاخلية (مصدرها الملفوظ) والمعطيات الخارجية (مصدرها السياق ومكوّناته المختلفة"[25].

يؤيّد أوستين فكرة أن تكون حقيقة الافتراضات المسبقة شرطا لاستعمال الملفوظ الإثباتي، فحتى يؤدّي الفعل الكلامي دوره كما ينبغي، يجب أن يستجيب للمطالب الذّاتية والمطالب الموضوعية، تتشكّل الأولى من مجموعة من الأحاسيس، والرغبات، والمقاصد (ينبغي أن يكون المتكلّم صادقا في القول والفعل)، بينما توازي المطالب الموضوعية الافتراضات المسبقة، التي يشترط أن تكون حقيقية، لأنّها إذا كانت غير ذلك، فإنّ فعل الإثبات لن يتحقّق مهما كانت الجملة المنطوقة.يغلب في النّص ما هو مفترض مسبق، إذ ما تلفّظ به الحمار كان حاملا لمعطيات موسومة لسانيا في الملفوظ، وعلى سبيل المثال نجد قوله :"ما حمل الأيل هذه القرون إلا وعنده رماح وقسيّ..."[26] الذي يتضمّن افتراضا مسبقا

متمثّلا في تحكّم الأيل بالفروسية، ذلك أنّ نفي هذه الجملة وإثباتها سيقود إلى النتيجة ذاتها، فوجود الافتراض المسبق يبقى عاملا ثابتا مقارنة بالقول المضمر، الذي يحتكم إلى معطيات داخلية وخارجية، ويتأثر محتواه بها فيتميّز بعدم الثّبات، يقول مانقونو :"يستنتج القول المضمر من السياق، ووجوده غير ثابت دائما، بينما الافتراض المسبق يتّسمّ بالثبات. يستخلص الأوّل من الملفوظ، ويستخلص الثّاني من التّلفّظ [...]"[27]، فكلا من الافتراض المسبق والقول المضمر يفترض محتوى ضمنيا، إلا أنّ الافتراض المسبق يدخل في إطار بنية الملفوظ بمعزل عن سياق استعماله.

أمّا التّأثير الذي من المفترض أن ينتج عن الفعل المنجز، رغم ما يقال في هذه العلاقة وأسبقية أحدهما عن الآخر، يظهر في هذه القصّة في عدّة مواضع منها عند هيجان الحمار عندما رأى الأتان من بعيد، وتطبيقا لثنائية المثير والاستجابة التي نادت بها المدرسة السلوكية الأمريكية، فإنّ الحيوانين أديا مثل هذا الدّور، مثلما يظهر الدّور نفسه عند مشاهدة الحمار للأيّل وإعجابه بقرونه، ويظهر كذلك في تعجّب الأيّل من هيجان الحمار وسببه، ونتيجة ذلك يبقى دون قضاء حاجته التي جيء به من أجلها.

والعودة إلى ارتباط التّأثير بالفعل الإنجازي والمتضمّن في القول، فالجملة التي نطق بها الحمار :"أظنّ أنّي قد أعجبته لما رأى من شهامتي وحسني وقد انشغل قلبه بي" تحمل بعدا تأثيريا متمثّلا في الاعتقاد الباطني أنّ الأيّل معجب بالحمار وأنّه يكفي الهيجان ليتمكّن من الإعجاب، إضافة إلى التّأثير الذي يحدثه الأيّل في الحمار، إذ يتسبب في خدمته وطاعته وإكرامه ببعض السلاح التي كان يتوهّم وجودها لديه، والمدهش في الأمر أنّ الأيّل لم يقل شيئا، وإنّما كان الحمار في عالمه يصول ويجول بعيدا عن المنطق والواقع، فإذا كان قول شيء ما يستلزم الإنجاز، فقد يعوّض القول ببعض الملامح والأمارات التي ستؤدّي إلى ما سيؤدي إليه القول أي الإنجاز، الذي يستلزم التّأثير، وإذا حدث التّأثير حدث التّغيير، إلا أنّ هذا التّغيير كان للحمار ضربة قاضية، لأنّه فقد أذنيه بعدما كان يلتمس قرنين، ويحلم بهما، وبهذا قد تجسّد ما قاله سورل في مثل هذه الوضعيات:" ما الفرق الموجود بين أن نقول شيئا نقصد دلالته، وكيف أن نقول الشيء نفسه دون أن يكون لنا هذا القصد، وماذا يقتضي فعل قصد التّدليل على شيء محدّد وليس على شيء آخر"[28]، فالقول قد يرتبط بقصد الدّلالة مثلما قد لا يرتبط به، فالقصد هنا قد يغيّر الكثير، إذ هو الذي يجعله

مرتبطا بالتأثير، الذي لم يتحقّق بالإيجاب في قصّة الحمار وقصديته، فمحاجة سورل ترتكز على إبراز أنّ شروط إقناع الإثبات أو الالتماس تتنوّع في وظيفة المعطيات السيّاقية التي لا يمكنها أن تظهر في ما يتشكّل ثانية في البنية الدّلالية للملفوظ"[29] ذلك أنّ العناصر السياقية تؤثّر على بنية الملفوظ من الخارج، وأقوال الحمار مرتبطة بسياقات التّلفّظ بها وهي مبرّرة عنده، بينما لا تفسير لها عند الأيل وصاحبه. ويمكن أن نلخّص ذلك بهذه الخطاطة:

2.4 التّضمين ومبدأ التّعاون:

ويمكن أن نعضد ما ذكرناه باعتقاد أوستين أنّه ينبغي تمييز الأفعال ذات الغاية التّأثيرية أي الإقناع عن الأفعال التي تفضي إلى عواقب تأثيرية. تمثّلت هذه الغاية عند الحمار في إعجاب الأيّل به وإعطائه بعضا من السلاح على حدّ قوله، إلا أنّ هذا لم يحصل نظرا لعدم وجود تقاسم الفكرة بينهما، أي حدث عدم احترام لمبدأ التّعاون بين الحمار والأيّل، وأوّل عقبة كانت في عدم الفهم والإفهام[30] وعدم اشتراكهما في الوضع التّواصلي، يقول صاحب القصّة:" فلمّا رأى الحمار ذلك اتّبعه يماشيه ويخاطبه بلغته، ولم يكن الأيّل عارفا بلغة الحمير"[31]، ومثل هذا الوضع سيؤدّي حتما إلى فشل العملية التّواصلية، والنّتيجة النّاجمة عن ذلك تمثّلت في سوء فهم الحمار، ممّا تسبّب في ضربه ومقاتلته وقطع أذنيه نتيجة تطاوله على صاحب الأيّل والقيام بعضّه.

ومن خلال القصّة والحوارات الافتراضية القليلة، نلحظ فشل المبدأ التّعاوني نتيجة اختراق لمعظم القواعد التّخاطبية، إذ توجّه الحمار بأقواله وسلوكاته إلى قاعدة عدم التأدّب التي أدّت إلى الهلاك، ومن ذلك ما صدر منه من هيجان وهروب من البيت وهجوم شرس على صاحب الأيّل، فقد كان هدف الحمار واضحا، إذ كان يبحث عمّا كان ينقصه في جسده، غير راض بخلقه وهيأته، أمّا مبدأ التّأدّب الذي دعت إليه روبين لاكوف انطلاقا من طروحات جرايس، يتوقف على ثلاث قواعد أساسية:

1. مبدأ التّعفّف: لا تفرض نفسك أو آراءك أو ذوقك
2. مبدأ التّخيير: اترك لغيرك حريّة الاختيار

3. مبدأ التّودّد: اجعل الآخرين يشعرون بالبهجة والارتياح

الملاحظ أنّ الحمار بعيدعن هذه القواعد، وبالتّالي لم يكن مؤدّبا، فقد فرض نفسه على الأتان في البداية وأظهر إزاء ذلك هيجانا وتهيّجا وشغبا، مثلما فرض نفسه على الأيّل الذي تعجّب منه وأدّى ذلك إلى عدم إرتوائه من النّهر، الأمر الذي جيء به من أجله، وفرض نفسه مردّه أخرى على الأيّل عندما أقدم على انتظاره ومماشاته ومخاطبته، ولن يتوقّف عند هذا الحدّ وإنّما يقدم على عضّ صاحب الأيّل، في اعتقاده أنّه السّبب في عدم وصوله إلى الأيّل والحصول على ما يريد.أمّا قاعدة التّخيير فكانت مخترقة من قبل الحمار، الذي لم يترك حرية للأيّل في اختياره صاحبا له، وإنّما فرض نفسه بسلوكات خاضعة لثنائية المثير والاستجابة، فالأيّل كمثير غير مدرك لما خلّفه عنده الحمار من إعجاب أدّى به إلى ارتكاب ما لا يحمد عقباه، مثلما تمّ اختراق قاعدة التّودّد، إذ تسبّب الحمار بهيجانه وتهوّره في عدم ارتياح الأيّل والأتان معا، إضافة إلى ما سبّبه من قلق وغضب ووجع عند صاحب الأيل بعدما عضّه من ظهره.

وإذا توقفنا عند تحليل هذه القواعد، فقد كانت مخترقة منذ البداية، إذ الطّابع السّاخر المؤطّر للقصّة، الذي ربط الحمار بذوات أخرى وأهمّها الأيّل جعلها لا يحقّق مصداقيتها بشكل تام وشامل، نظرا لما تعرّض له الحمار من عقبات آلت دون أن يتجسّد التّعاون بينه وبين الأيل، الأمر الذي أدى إلى هلاكه، فالفعل التّواصلي لم ينجح تبادليا، بحيث لم يسهم فيه الطّرفان، إذ كانت الرّدود محقّقة لخيبة انتظار الحمار، ورغم انتماء الأيل إلى عالمه، إلا أنّ التّواصل فشل لعدّة عوامل ترتبط أكثر بالجانب الاجتماعي الذي لم يفرض علاقة احترام بين الذّوات رغم اختلافها. فـ"التّحليل التّداولي بوصفه تحليلا لاستعمال العلامات وآثارها، يلتحق بهذا الشّكل بحقل علم النّفس الاجتماعي، مادام هذا الأخير يدرس ردود أفعال الأفراد مقابل ردود أفعال آخرين"[32]، وفي التّداولية الكليّة أو الشّاملة التي نادى إليها هابرماس قام بتوسيع مسألة أفعال التّلفّظ لتمتدّ إلى إطار أكثر اتّساعا هو إطار المتخاطبين والتّفاعل التّواصلي.

يمكن للحركات الجسدية أن تكون آلية عند المتكلّم، فتكون مرتبطة بسبب ما، مثلما قد تكون مصاحبة للتّلفّظ وقد تكون إرادية أو غير إرادية، بينما ترتبط السلوكات بمقاصد المتكلّم ذاته وتخبر الآخرين بها، الأمر ذاته حدث مع الحمار الذي كان راغبا في إثارة انتباه

الأيّل وقد أبرز ذلك في قوله:"أظنّ أنّي قد أعجبته لما رأى من شهامتي وحُسني وقد اشتغل قلبه بي".

تحقّق الموضوع الذي تحدّث عنه هابرماس في تحديده للفعل التّواصلي عندما يفهم في بعده التّداولي في الجمل التي تلفّظ بها الحمار من قبيل:"ما حمل الأيل هذه القرون إلا وعنده رماح وقسيّ وسائر أنواع السلاح، وبلا شكّ أنّه ماهر بالفروسية، ولو استوى لي أن أهرب من موضعي وألازم هذا الأيل وأخدمه وأطيعه فيما يأمرني به"، "لقد كنت أتفرّس"، "وكان هو أيضا إذا رأى خدمتي ونصحي وإكرامي لم يبخل عليّ بهبة شيء من السّلاح". ولو لم يرد الله بي سعادة، ما ساق هذا الأيل إلي"، فهذه الجمل شكلت ملفوظا، والنّظر إليه في بعده السميوطيقي يسمح بتحديد هويّة الموضوع المتحدّث عنه، وتتمثّل في كيفية حصول الحمار على ما يعتبره سلاحا من عند الأيل، وإن كان هذا الملفوظ محل التّصديق والكذب، لأنّه لم يتجسّد إنجازيا أو فعليا، فيمكن التحقّق منه، مثل معرفة ما إذا كان مقاتلا ماهرا بالنّظر لما يحمله من قرون، وتصديق إكرام من يقدّم خدمات مهما كان نوعها... إلخ

أمّا ما يتعلّق بالعلاقة بينشخصية المفترضة بين الحمار والأيل، فهي مؤسّسة الموضوع التّواصلي الصّريح عند الحمار والمضمر عند الأيل، والمكوّن من أحداث وأساليب تفكير وأشياء ماديّة. وإن كان التّفاهم سيكون متحقّقا بوجود الموضوع والعلاقة بينشخصية (الحمار والأيل)، الأمر الذي ينتفي وجوده في هذه القصة نظرا لعدم تقاسم الطرفين لهما.

ومن أجل الوصول إلى درجة الفهم والإفهامكان ازاما على الحمار والأيل الامتثال إلى بعض القواعد التي حدّدها مانقونو بمصطلح قوانين الخطاب وهي قاعدة الحقيقة، وقاعدة المصداقية وقاعدة سداد الرّأي[33].

1. قانون الحقيقة: يفرض هذا القانون أن يكون المتكلّم مدركا لما يقوله ومدركا لموضوع كلامه، فالحمار منذ البداية كان مبديا لشغبه، إلا أنّ الموضوع الذي أثاره وأصبح هاجسه الوحيد تمثّل في الحصول على قرنين امتثالا بالأيل، وكلّ الجمل التي تلفّظ بها مرتبطة بالملفوظ الأولي :" ما حمل الأيل هذه القرون إلا وعنده رماح وقسيّ وسائر أنواع السلاح..."، "وبلا شكّ أنّه ماهر بالفروسية"، "وكان هو أيضا إذا رأى خدمتي ونصحي وإكرامي لم يبخل عليّ بهبة شيء من السّلاح"، أظنّ أنّي قد أعجبته لما رأى من شهامتي وحُسني وقد اشتغل قلبه بي"، "ما يمنعني من كلام هذا الأيل واللّطف به والخدمة له وكشف ما عندي

إلا هذا الرّجل الذي يقوده"، "لقد كان أبائي أقدر منّي على هذا، لكن خافوا من سوء عاقبته فامتنعوا منه".

وهذا التّفرّع المنبثق من الحدس الأولي جعل الحمار يدرك ما يبحث عنه، وأصبح محاججا في ضرورة حصوله على القرون، رغم أنّ إدراكه يبقى واهيا، لأنّ الحمار لم يوهب بقرون.

2. قانون الصّدق: يفرض هذا القانون على المتخاطبين التزام الصّدق في إنجاز الأفعال، وذلك يعني تحقيق معادلة أوستين: القول يساوي الفعل، فالحمار قد صرّح بما يفكّر به بالفعل، والتزم بإنجاز ما كان مخطّطا له أو مستقصدا، ويظهر ذلك في قوله: "ينبغي أن أجعل هربي إليه في اللّيل"[34] فالهرب كان الأمر الذي كان الحمار يفكّر فيه وأقدم على إنجازه، وكان صادقا فكرا وقولا وفعلا ولم يتظاهر البتّة في ذلك، فحقّق قصده الأوليّ المتمثّل في الوصول إلى الأيل ومحادثته، والهرب في اللّيل والإقدام على هذا الصّنيع ليس إلا دليلا على رغبة تحقيق القصد، وقد كان ضامنا لما يفكّر فيه ضمنيا، وهو ما سيحيلنا على النّقطة الثّالثة والحديث عن فكرة سداد الرّأي.

3. مسألة سداد الرأي قد تكون مثيرة للجدل عندما ربطناها بالحمار، إلا أنّ القصّة في جوهرها مؤسّسة على سخرية عامّة مؤطّرة للعمل القصصي، الذي يتكوّن من بنى صغرى من الخطاب السّاخر، فسداد الرأي يمكن ترجيحه إذا ربطناه بخصوصيات الحيوان الأصلي، ولكن بربطه بمقاليد الخيال، جعلنا نتقبل الفكرة على اعتبار المخاطر التي كان الحمار يتوقّع حدوثها، فانفلتت السّخرية في هذا السياق لتترك المكان للحكمة والتأمل، اللّتين لم تخدما الحمار في نهاية القصّة، فمخاطبته الأيل بلغة الحمير وإزعاجه تسبّب في افتقاد الحكمة، وما توجه صاحب الأيل إلى الضرب إلا نتيجة ما فرضه السياق، فالأدوار

وزّعت بين الأيل والحمار بشكل غير خاضع للمواضعة، إذ عدم تقاسم اللّغة يعدّ عنصرا سلبيا في عدم التّمكن من الفهم والإفهام، ويمكن اعتبار هذه العناصر عاملا من الحظ السيء المرافق للحمار، فالأيل أيضا لم يكن لينا ولم يكن عاملا مساعدا في تحقيق سداد الرأي، فقد تمّ خرق القواعد المنظّمة للأدوار الكلامية ما أدى إلى فشل أفعال التّلفظ، فكفاءة الحمار لم تكن كافية لإيصال قصده لأنّه لم يجعل للإنتظار مكانة فيما سيقبل عليه، وهو تجاهل لما للقصد من علاقة بالانتظار، فإن حاول الحمار إيصال القصد –وعلى الأرجح إنه لم يتمكّن من إيصاله- فالانتظار مغيّب، وهذا التّغييب يعدّ سببا في سقوط الحمار ضحيّة الأيل وصاحبه، ذلك أنّ الانتظار مرتبط في بعده المزدوج بالمتكلّم بمفهوم هابرماس عندما يتحدّث عن انتظار القصدية وانتظار الشّرعية.

يتعلّق انتظار الشّرعية بما هو أخلاقي، وفي ضمنية القّصة ليس هناك ما يمت بصلة مع أخلاق الحمار الذي توجّه نحو الحوار رغم فشله في ذلك، إضافة إلى أخلاق صاحب الأيل الذي لم يتهاون في أخذ العصا وضرب الحمار دفاعا عن الأيل الذي لم يكن بحاجة إلى دفاع، وبالتّالي حدث فشل وإخفاق في انتظار الشرعية مثلما حدث مع انتظار القصدية، فقد كان المضمر الخطابي متحكّما في سير الخطاب، وهي الواجهة التي لم تشغل بال الحمار، الذي تصرّف مع الأيل على أنّه موضوع وليس ذاتا، نظرا لما هو مطلوب منه (الأيل)، فلم يفكّر الحمار في قدرة استجابة الأيل لأقواله وأفعاله، والنتيجة كانت واضحة في قوله النّهائي "لقد كان أبائي أقدر منّي على هذا، لكن خافوا من سوء عاقبته فامتنعوا منه"، الحامل لحكمة ضمنية اشتغل بها الحمير من قبل حتى يتفادوا سوء المصير.

خاتمة: يمكننا من خلال هذه القراءة المتواضعة في ضمنية الخطاب الساخر لابن المقفع القول إنّ السّخرية كانت المؤطّر العام للقصّة، نظرا لبنائها الشّامل على مفهوم من مفاهيمها وهو الاستخفاف، والاستهزاء، والتّهكّم، وإن لم يشتغل الخطاب على هذه المعالم حقيقة من خلال الحوار الوارد في القصّة، إلا أنّ ورودها على لسان الحيوان أضفى عليها لمسة ساخرة يتقاسم عملها الجانب الصّريح والجانب الضّمني من الخطاب. وإن كان الاهتمام بالضّمني أو التّضمين، فإنّ ذلك خاضع لما يحمله الخطاب في حدّ ذاته من سلطة قولية، إضافة إلى ما تتضمّنه من بعد سميائي، ونفسي، واجتماعي جعلها تنصاع وراء المحتويات الضّمنية من افتراضات مسبقة، وأقوال مضمرة أسهمت في تماسك الخطاب وانسجامه، فالتّداولية الكلية لهابرماس أثبتت في مثل هذه الخطابات قوانين الفعل

التّواصلي ودورها في تسيير ما هو ضمني، والتّوصّل إلى التّأويل المحتمل الذي يمكن للّساني استنتاجه من التّدخل الاستجابي للمتلقي، والتّأويل الذي كنّا نتوجّه إليه هو ذلك التّأويل القابل للاستنتاج انطلاقا من نوع الاستجابة الواردة، على أن يكون المضمر أو الضّمني يعني التّعامل مع الخطاب بتلك المعطيات الغائبة والحاضرة الغائبة في الآن ذاته.

لقد تمكّن صاحب النّص من الجمع بين الصّريح والضّمني من الخطاب في صورته الظّاهرة، إلا أنّ طبيعة السّخرية المسيّرة للقصّة جعلت الأحداث والأفعال الكلامية غير المباشرة تنحو منحى التّقرير والإنجازية في الآن ذاته، وجعلت التّضمين آلية تستنطق بها الظواهر، نظرا للطابع التّخييلي المميّز للنّص، والعبرة الذي ينبغي استخلاصها، من حيث عدم الاقتراب من النّار، لأنّها ستحرق، والحمار في تصوراته الضّمنية المتوجّهة نحو الرغبة في قرون جعلته أكثر بلاهة وعرضة للسّخرية السّاحقة، لأنّه سيضطر للعيش دون أذنين، فالتّداولية الكلية التي أحال إليها هابرماس أبرزت مقومات الفعل التّواصلي من حيث تشّكله، واحتكامه إلى التصريح والتّلميح أو الضّمني، وما يمكن أن يسهم في نجاح التّواصل من عدمه، وعُدّ الجانب الضّمني السّاخر مؤطّرا أساسا وحاسما في الخطاب على لسان الحيوان.

مراجع البحث وإحالاته:

1 - Blanchet. Ph, La pragmatique d'Austin à Goffman, Bertrand Lacoste Editeurs, Paris 1995, P90.

2- Zaraté. G, Enseigner la culture étrangère, Hachette Editions, Paris 1985.

3 - Orecchioni. C.K, L'implicite, Armand Colin Editeur, Paris 1986, P 39.

4 - Zaraté. G, Enseigner la culture étrangère, Hachette Editions, Paris 1985.

5 - عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدّة، بيروت لبنان، 2004، ص 57.

.6- ينظر: عبد السلام إسماعيل علوي، في تداوليات التّأويل، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، ع 148، 2009، ص 109

7- عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، حقّقه وقدّم له محمد أمين فرشوخ، ط1، طبعة جديدة وملوّنة، دار الفكر العربي، بيروت لبنان 1990، ص 224.

8 - Eco. U, Les Limites de l'interprétation, pour une traduction française, Bertrand Grasset, Collection le livre de poche, Série Biblio/ Essais, Paris 1992, P 291.

9 - Habermas. Jürgen, Théorie de l'agir communicationnel, Traduit vers le Français par Jean-Louis SCHLEGEL, Editions Fayards, Paris 1987, P 283-347.

10- مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان 2005.

11- آن ربول، جاك موشلر، التّداولية اليوم، علم جديد في التّواصل، ترجمة سيف الدّين دغفوس، ط1، المنظّمة العربية للتّرجمة، لبنان 2003، ص 37.

12- المرجع نفسه، ص 37.

13- عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، ص 225.

14- عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، ص 224.

15 - Ducrot. O, Dire et Ne pas dire, Armand Colin Editeur, Paris 1991, P 132.

16 - Austin. J, Quand dire c'est faire, Traduction et introduction de Gille lanes, Editions de Minuit, Paris 1970.

17- عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، ص 224.

18- عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، ص 225.

19 - ينظر: ذهبية حمو الحاج، لسانيات التلفّظ وتداوليات الخطاب، ط2، دار الأمل للنّشر والتّوزيع، تيزي وزو 2012، ص 130.

20 - Maingueneau. D, Pragmatique pour le discours littéraire, Bordas Editions, Paris 1990, P 78.

21 - Orecchioni. C.K, L'implicite, Armand Colin Editeur, Paris 1986, P 25.

22 - Orecchioni. C.K, L'implicite, P 26.

23- عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، ص 224.

24 - Jaubert. A, La lecture pragmatique, Hachette Editions, Paris 1990, P 197.

25 - Jaubert. A, La lecture pragmatique, P 201.

26- عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، ص 224.

27 - Maingueneau. D, Pragmatique pour le discours littéraire, P 79-80.

28 -Searle. J.R, Les actes de Langage, Essai de philosophie du langage, Traduit par Helene Pouchard, Hermann Editeur, Paris 2009, P 37.

29 -Searle. J.R, Les actes de Langage, P 72.

30- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ط5،مكتبة الخانجي، ج1، الكويت1985،ص76.

31- عبد الله بن المقفّع، كليلة ودمنة، ص 225

32- الفي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ترجمة محمد تنفو وليلى أحمياني مراجعة وتنسيق سعيد جبار، ط1، دار رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة 2018، ص 55.

33- الفي بولان، المقاربة التداولية للأدب، ص 62.

34- عبد الله بن المقفع، كليلة ودمنة، ص 225.